مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 759 - 774 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مقاربة سيميائية لقصة موسى مع الخضر عليهما السلام

A Semiotic Approach to the Story of Moses and Al-Khidr - Peace be upon them-

* فريد عوف
farid Aouf
جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، (الجزائر)
University of Mohamed Seddik Ben Yahia Jijel, (Algeria)
aouffarid@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/08/24	تاريخ النشر: 2020/11/04

ملخص البحث

إنّ إشكالية تحليل الخطاب الديني من أكبر المعضلات التي كَثُر الجدل حولها، وهي مدى إمكانية إخضاع المقدّس إلى المساءلة النقدية في ضوء المناهج النقدية المعاصرة من أجل فهم معانيه، وتقصي حقائقه ودقائقه. وفي خطاب الحداثة صار القرآن الكريم ميدانا خصبا للناقد الأدبي، كلّ في مجال بحثه، فالبنيوي يخوض في لغته وبنيته، والأسلوبي في أسلوبه، والسيميائي في دلالته، والتداولي في معانيه أو معنى المعنى، وهكذا.

وقصة موسى مع الخضر –عليهما السلام– من أروع القصص القرآني التي يمكن أن تخضع للإجراء السيميائي لغناها بالعبر والعلامات السيميائية، ومن هنا كانت موضوع بحثنا الذي نروم منه إلى تسليط الضوء على تلك العلامات ودلالاتها وأبعادها الدينية والفلسفية.

–الكلمات المفتاح: تحليل، خطاب، سيميائية، ديني، نقد.

-Abstract :

The problem of analyzing religious discourse is one of the most controversial dilemmas, that is the extent to which the sacred can be subjected to critical questioning in light of contemporary critical methods to understand its meanings and investigate its facts and subtleties. In the discourse of modernism, the Noble Qur'an became a fertile realm for the literary critic, each in his field of research; the structuralist delves into its language and structure, the stylistician in its style, the semiotician in significance and the pragmatist in meanings or the meaning of meaning and so on. The story of Moses with Al-Khidr, peace be upon them, is one of the

* فريد عوف: aouffarid@hotmail.fr

most wonderful stories of the Qur'an that can be subjected to the semiotic procedure.

-**Keywords:** analysis; discourse; semiotics; religious; criticism.

–مقدمة:

القرآن الكريم كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وبديع تصويره، وسموّ غايته، فقد أسكت البلغاء، وأذهل الحكماء، بأسلوبه البديع الذي يعرفه أهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه، وأمّا الذين لا يعرفون عنه إلاّ مفردات الألفاظ، وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون. ومن ثمَّ فقد أوجب الله تعالى على خلقه قراءته وفهمه وتدبّر معانيه، والبحث عن أسرار إعجازه، فقد كان علماء التفسير في القرن الثاني الهجري على تعدّد اتجاهاتهم يتنافسون في الظفر بدرر معاني القرآن ونظمه، وكان من أشهر كتبهم (معاني القرآن) لأبي زكريا يحي بن زياد بن عبد الله (ت207هـ)، و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210هـ)، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت276هـ)، وغيرهم .

وعلى هذا النص القرآني أُسست العلوم المختلفة، حيث وضع سبيويه (ت 180هـ) أصول علم النحو في "الكتاب"، وأبو عمرو بن بحر الجاحظ (ت 210هـ) نظرية البيان في "البيان والتبيين" وعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) نظرية النظم في" أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وأرسى أبو يعقوب السكاكي (ت555هـ) قواعد علم البلاغة في "مفتاح العلوم".

وفي مطلع النهضة العربية الحديثة واجهت الأمة الإسلامية واقعا جديدا، أملته الظروف السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، والإيديولوجية، يجب مسايرته، إمّا بترك الأصالة والانصياع وراء الوافد الغربي من التيارات الفكرية والاتجاهات الغربية تحت تأثير "العولمة"، وإمّا بالانغلاق على الماضي ومنع رياح التغيير، وإمّا بإمساك العصا من وسطها، فتأخذ منهما كلّ نافع ومفيد.

ومع تطوّر الحركة العلمية والفلسفية والأدبية والدينية التي اتّصلت بالصحوة الإسلامية نادى العلماء والفلاسفة والمفسرون إلى مسايرة حضارية للنص القرآني، وتقديم البدائل من الرؤى والمفاهيم الصحيحة لتقريب معاني القرآن بطرائق ومناهج أكثر نجاعة لمواجهة التصورات الخاطئة التي بثتها الحداثة الغربية.

ودخلت الاتجاهات النقدية الغربية إلى العالم العربي في القرن العشرين، فاحتضنها النقاد العرب لتطبيقها على الخطاب الأدبي العربي (شعري أو نثري) سواء أكان ذلك بالمناهج النقدية السياقية كالتاريخ والنفسي والاجتماعي أم بالمناهج النسقية كالبنيوية والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية والتداولية، آملين أن يصلوا بها إلى مدارج المعنى، ويكشفوا عن أسرار المبنى.

هذا، ويمثّل موضوع تحليل الخطاب الديني أهم القضايا التي برزت مع بداية الوعي الحداثي العربي في القرن العشرين، حيث اتجه الدارسون إلى قراءته بآليات حديثة قصد فهمه وتأويله من خلال تطبيق المقاربات النقدية المعاصرة كالبنيوية والأسلوبية والسيميائية والتداولية والتأويلية. وقد ساد الاعتقاد أنّ النص القرآني لا يمكن أن يخضع إلى تلك المقاربات الحديثة، لأنّه كلام إلهي مقدّس ؛ لا يصحّ وضعه في كفّة الكلام البشري (شعر، ونثر)، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل: هل يمكن إخضاع النص القرآني للمناهج الحديثة قصد اكتشاف معانيه وخصائصه الأسلوبية والفنية؟ وهل يمكن دراسة القصة القرآنية مثلما تُدرس في مجال الأدب؟.

والحقّ أنّ كثيرا من المقاربات التي طُبّقت على النص القرآني لم تبتعد كثيرا عن الحقائق الدينية وكانت سندا لفهم القرآن الكريم، لأنّ النقاد في أكثر الأحيان تجنّبوا في دراساتهم التقويل، والمغالاة في التأويل، والخوض في المسائل الخلافية فكانوا يتناولون المسائل اللغوية والبلاغية والأسلوبية في القرآن الكريم أو قضايا غايتها الوعظ والإرشاد.

وكانت القصة القرآنية أكثر استقطابا للدارسين العرب لما فيها من سمات فنية تضاهي القصص والروايات المعروفة في الأجناس الأدبية، حيث تناولوا قصص أهل الكهف، وذي القرنين، وصاحب الجنتين، وقصة سيدنا يوسف —عليه السلام– بمقاربات جديدة بنيوية وأسلوبية وسيميائية؛ وإن كان القدامى –مثل علماء التفسير– تناولوا قصص الأنبياء لكن ليس بهذه الآليات الجديدة.

إنّ النموذج الذي عمدنا إلى مساءلته نقديا هو المشهد السردي في قصة موسى مع الخضر — عليهما السلام–، وسبيلنا إلى ذلك، قراءته قراءة سيميائية، لنكتشف العلامات والإشارات اللغوية وغير اللغوية التي تحملها القصة، وكيفية بناء الشخصيات، وتطور الأحداث، والعناصر المشهدية.

ويتّفق الدارسون للسيميائية على أنّ موضوعها هي العلامة سواء أكانت هذه العلامة لغوية أم غير لغوية، من حيث عملية ضبطها والكشف عن القوانين المادية وكذلك النفسية التي تحكمها. والعلامة

هي التي تستخدم من أجل نقل معلومات أو قول شيء أو الإشارة إلى شيء ما يعرفه شخص ما يريد أن يشاطره الآخر هذه المعرفة تعدّ جزءا من سيرورة إبلاغية.

وتتجلى أهمية هذا البحث في كونه دراسة تطبيقية إجرائية على الخطاب الديني، وليست تنظيرا من جهة. ومن جهة أخرى كانت تطبيقا لإجراءات المنهج السيميائي –على النص القرآني (قصة النبي موسى مع الخضر).

وعملية قراءة ثانية للخطاب القرآني ليست بالأمر الهيّن، لأنّ القرآن الكريم ليس كالخطاب العادي (شعري أو نثري)، بل ينفرد بخصائص لغوية وأسلوبية ودلالية، فهو كلام الله المعجز.

وقد تناول كثير من الدارسين القصص القرآني بالدراسة وفق هذه المقاربات الحديثة مثل حبيب مونسي في كتابه "المشهد السردي في القرآن الكريم –قراءة في قصة سيدنا يوسف –عليه السلام– وفق المنهج السيميائي. أمّا قصة موسى مع الخضر فلا نجد دراسة سابقة لها.

أمّا إشكالية البحث فهي هي: هل يمكن إخضاع الخطاب الديني إلى المساءلة النقدية في ظلّ التراكمات المعرفية والإيديولوجية والفلسفية، وتعدد التيارات، وتزاحم المناهج النقدية المعاصرة؟ وإلى أيّ حدّ ساهمت هذه الأخيرة في تفسير وقراءة وتأويل النص القرآني؟.

ومن الإشكالات الفرعية فهي : هل استطاعت السيميائية –باعتبارها المنهج المتبع في الدراسة– أن تكشف المعاني والعلامات التي تحملها قصة موسى مع الخضر؟ وإلى أيّ حدّ ساهمت في مقاربة معنى الآيات القرآنية؟.

هذا، ويروم هذا البحث إلى قراءة ثانية للنص القرآني وفق آليات حديثة من خلال الاعتماد على إجراءت المنهج السيميائي في تحليل قصة موسى مع الخضر –عليهما السلام–، لاكتشاف الشفرات والعلامات والأبعاد الدينية والفلسفية التي تحملها القصة، وبيان مدى نجاعة هذا المنهج –أي السيميائي– في مقاربة معنى الآيات القرآنية.

إنّ قراءة النص القرآني وفق مقاربات حديثة كالسيميائية –مثلا – ساعدت على تفسير وتأويل وفهم وتدبر معانيه، واكتشاف دلائل إعجازه، ومن ثمَّ فإنّ معنى الحداثة الدينية الإسلامية لا تعني القطيعة مع التيار التغريبي، ولا التشبث بالماضي بحجّة التمسك بالأصالة، وإنّما الاستفادة من روافد الفكر الإنساني أينما كان وأينما وُجد، دون احتقار الهوية والانتماء الحضاري.

ومن هذا المنطلق سنبحث في هذه الورقة عن العلامات السيميائية والمشهد السردي في القصص القرآني (قصة موسى مع الخضر)[1]:

1– قصة موسى مع الخضر والسياق التاريخي:

وقصة موسى مع الخضر من أروع القصص القرآني في نسجها وبنائها وسموّ غاياتها، وقد قيل عن سببها فيما أخرجه البخاري في صحيحه "عن أبيّ بن كعب أنّ ابن عباس دعاه فقال: إنّي تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيّه، هل سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنّك ستلقاه، وكان يتّبع أثر الحوت في البحر...فوجدا خضرا" [2].

2–سيمياء الإطار (فضاء الحكي الزماني والمكاني):

الزمان والمكان من أهم مكوّنات الخطاب السردي، وهما متلازمان، فعناصر المشهد السردي في قصة موسى مع الخضر تتحرّك في إطار زماني ممتدّ بشقّيه: الزمن الطبيعي والتاريخي، لأنّ رحلة موسى – عليه السلام– كانت طويلة في بحثه عن الخضر، وتعقّب مكان وجوده «وَإِذ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبرَحُ حَتَّىٰٓ أَبلُغَ مَجمَعَ ٱلبَحرَينِ أَو أَمضِيَ حُقُبا (٦٠) ». ففي هذه الآية الكريمة قرينتان زمانيتان، الأولى "لا أبرح" بمعنى "لا أزال سائرا حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين"[3]. والثانية هي "حقبا" التي جاء معناها في تفسير ابن كثير فيما رواه ابن جرير –رحمه الله– : ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أنّ الحقب في لغة قيس: سنة، ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنّه قال: الحُقب: ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفا...وقيل دهرا.."[4]. ومن هنا يتبين أنّ المدّة الزمنية التي التقى فيها موسى مع الخضر كانت طويلة لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

وإذا نظرنا إلى زمن الحكي في هذا الخطاب الديني ميّزنا بين ثلاثة أزمنة تنمو وفق نسق تصاعدي حسب تطور الأحداث، وهي:

أ–**زمن قبل الفعل أو قبل اللقاء بالخضر**: في مطلع النص القصصي، حيث رسم موسى عليه السلام هدفه وأصرّ على البحث عن الخضر، فلم يتّحقق الفعل بعد، ولهذا هيمنت الأفعال المضارعة وهي

تدلّ على المستقبل، (لا أبرح، أبلغ، أمضي). وما يُلاحظ في هذه الفترة الزمنية في النص القصصي أنّ السارد تجاوز سرد وقائعها رغم أنّ المدّة كانت طويلة، لأنّ غايته عرض الحادثة، من حيث هو حذف لفترات من زمن الأحداث؛ لأنّ القرآن كلام الله؛ والله لا يغفل؛ فله الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

و سمى أيضا الثغرة أو الإسقاط أو الإضمار أو القطع وهو المرور على فترات زمنية ممتدة أو قصيرة دون سرد ما وقع فيها من أحداث أو بعبارة أخرى" هو الجزء المسقط من الحكاية، أي المسقط في النص من زمن الحكاية"[5].

ب-**زمن الفعل أو الوصول إلى مكان وجود الخضر (مجمع البحرين)**: وفيها وصل موسى عليه السلام إلى مكان وجود الخضر، وهنا نلاحظ سيطرة الأفعال الماضية التي تدل على تتابع الأحداث وتسارعها من العثور على الحوت، ونسيانه، ثم الرجوع إلى مكان وجوده على ضفة البحر، ومن الأفعال الماضية (بلغ،نسيا، جاوزا، اتّخذا...).

ج-**زمن اللقاء بالخضر**: وهنا وقعت أحداث مملوءة بالخوارق جسّدتها الأفعال الماضية الدالة على الحركة(انطلقا، ركبا، خرق، لقيا، أقام، قتل....)

هذا عن الزمان، أمّا المكان فيطلق عليه الدارسون في السيميائيات السردية مصطلح "الفضاء" أو "الحيّز"، وهذا الفضاء على تنوّعه قد يشمل أمكنة كثيرة تتحرك فيها الشخصيات في إطار زمكاني... وقد يكون الفضاء وهميا أو ما يسمى بفضاء المتخيل، و"هو المكان الممسوك بواسطة الخيال، لن يظل مكانا محايدا خاضعا لقياسات، وتقييم مساح الأراضي، لقد عيّن فيه لا بشكل وضعي، بل لكل ما للخيال من تحيز"[6] .

ويعدّ المكان مكوّنا محوريا في بنية السرد القصصي "بحيث لا يمكن تصور حكاية بدون مكان فلا وجود لأحداث خارج المكان، ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين"[7] وتزداد قيمة المكان "كلما كان متداخلا بالعمل الفني ممتزجا ببنائه"[8]، فالمكان يتداخل مع مكونات السرد الأخرى (الأحداث، الشخصيات، ...الخ)، فهو الحيز الذي تقع فيه الأحداث، وهو البعد المادي للواقع إذ يمثل الخلفية التي تقع فيها الأحداث، أي أنّه الإطار الذي تقع فيه، فأهميته لا تقلّ عن أهمية العناصر الأخرى في السرد القصصي، فهو يمثّل الأرضية الفكرية والاجتماعية التي يحدد فيها مسار الشخوص ويركز فيها على وقوع الأحداث ضمن زمن داخلي نفسي، يخضع لواقع التجربة الفنية.

وتزداد أهمية المكان في القصة القرآنية، حيث تتجلى عبره علاقة المكان بالشخصية، وما تنتج هذه العلاقة من فضاء وصور مشهدية، تضفي الحركة والصوت في حضور متخيل يدهش القارئ، ففي قصة موسى مع الخضر تتّجه الأنظار ومخيلة القارئ وتمتدّ من البرّ – مسافة طويلة قد استغرقت سنة من المشي برا أو بحرا- إلى مشارف "مجمع البحرين" وهو المكان الرئيس الذي جرت فيه أحداث هذه القصة ويرى صاحب "الكشّاف" أنّ مجمع البحرين هو " المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل طنجة، وقيل افريقية..."[9]

وتأتي الأمكنة الفرعية بعد رحلة موسى مع الخضر على متن "السفينة" «فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ»، ومن عجاج البحر تحوّل المشهد السردي إلى القرى :

-«فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلٰما فَقَتَلَهُۥ».

-«فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهلَ قَريَةٍ ٱستَطعَمَآ أَهلَهَا فَأَبَوا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ». و« أهل قرية هي "أنطاكية"، وقيل : الأبلة وهي أبعد أرض الله من السماء»[10]. ويبدو أنّ الأحداث تتسارع كثيرا في هذه الفضاءات، فمن السفينة في مجمع البحرين إلى قرية، ومن ثمَّ إلى قرية أخرى أهلها بُخلاء دون الخوض في التفاصيل التي تمّ إرجاؤها من طرف الشخصية الفاعلة (الخضر) إلى نهاية القصة.

3-سيمياء الشّخصيات:

والشخصيات مكوّن أساسي في الخطاب السردي، هي عنصر فعّال وحيوي في السرد، يقول رولان بارت: "ليس ثمة قصة في العالم من غير شخصيات أو على الأقل من غير فواعل"[11] وقد التبس مفهومها عند النقاد العرب في عدم التفريق بين مفهوم "الشخصية" و"الشخص"، حيث يوردون هذين المصطلحين بمعنى واحد، أو معنى أحدهما يقصد به الآخر أو العكس، وهذا ما أشار إليه عبد الملك مرتاض الذي فرّق بينهما، إذ عرّف "الشخصية" بأنّها "كائن حركي ينهض في العمل السردي بوظيفة الشخص دون أن يكونه"[12]. فالشخصية بهذا المعنى كائن ورقي ليس له حضور في الحقيقة وإن كانت مستمدة فعلا من الواقع.

أمّا "الشخص" فيحدده مرتاض بأنّه " الإنسان، لا صورته التي تمثّلها الشخصية في الأعمال السردية"[13]. وهو بهذا المعنى هو الكائن الحيّ الموجود فعلا بجسمه وروحه ودمه وعقله، وهو الفرد الذي له انتماء عائلي معيّن.

وقد ربط قريماس مفهوم الشخصية ب عنصرين أساسيين هما : العامل أو الفاعل والممثّل، "إذ ليس هناك من وجهة نظر نحوية–فعل دون فاعل، أو فاعل دون فعل"[14]. ومعنى هذا أنّ كل فعل داخل الخطاب السردي ينبع من فاعل يقف وراءه. أمّا الممثّل فهو وحدة متمظهرة على مستوى الخطاب تنسب لها مجموعة من المواصفات، ويوضع لها اسما معينا لتؤدي دورا معينا داخل المسار السردي، قد يرد على شكل اسم فردي، أو جماعي، أو ذهني مجرّد.

ويحرّك المشهد السردي في هذا الخطاب الديني شخصيتين رئيسيتين، و"يتوزع على محورين هما: محور منفعل، وآخر فاعل"[15]، فالأول هو النبي موسى –عليه السلام– الذي يظهر في القصة بصفته متعلّما، والثاني شخصية فاعلة (الخضر –عليه السلام–)، ويؤدي دور المعّلم لما أتاه الله من العلم والحكمة، وقيل أنّه نبيّ هو الآخر، يقول الزمخشري : « ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَة مِّن عِندِنَا » هي الوحي والنبوة"[16] .وإلى جانب شخصية ثالثة مساندة لـ موسى عليه السلام، وهي الفتى الذي رافقه في رحلته، و"يقال أنّه يوشع بن نون"[17]، وإن كان حضورها كان هامشيا أو ما يُسمى بالشخصية الجاهزة.

إنّ غريماس يذهب إلى أنّ عدد العوامل في كل حكي محدود على الدوام في ستّة وفق هذه الثنائيات : الذات والموضوع، المرسل والمرسل إليه، المساعد والمعارض' وتعمل هذه الثنائيات وفق ثلاثة محاور[18]:

–محور الرغبة: هو المحور الذي يربط بين الذات والموضع

–محور الإبلاغ أو التواصل: وهو عنصر الربط بين المرسل والمرسل إليه.

–محور الصراع : وهو ما يجمع بين المعيق والمساعد .

وبالإمكان تطبيق هذا النموذج من الاشتغال العاملي الشائع في السيميائيات السردية للتعرّف على بناء الشخصيات في هذه القصة القرآنية:

1–**الذات الفاعلة:** وهي العمود الفقري في الخطاب السردي، إنّها مصدر للفعل ونهاية له وتُسمّى في النقد التقليدي بالبطل، وفي هذه القصة الدينية ينفرد (الخضر عليه السلام) بدور المعلّم، فقد فاق موسى عليه السلام بعلمه وحكمته «وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلما».

2–**الموضوع:** وهو يمثّل الهدف المقصود أو الشيء المرغوب فيه. ويحرّك المشهد السردي رغبة موسى عليه السلام في الوصول إلى الخضر– عليه السلام– وأخذ العلم عنه «فَوَجَدَا عَبدا مِّن عِبَادِنَا

ءَاتَينَٰهُ رَحمَة مِّن عِندِنَا وَعَلَّمنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلما (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَل أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشدا » .

3–**المرسل**: وهو أحد طرفي الإبلاغ (باعث الفعل)، والجهة التي تمارس تأثيرها على "سيرورة الحدث" أي على اتجاه الحركة السردية فوضعية التنازع والخلاف يمكن أن تتغير وتتطور. وهذا يحدث بفضل المرسل فهو المسؤول على الحركة ويحكم عليها. فالأفعال التي قام بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الطفل، وإقامة الجدار بدون مقابل هي سلوكات كانت محل تأثير على موسى عليه السلام، لأنّ هذا الأخير لا يعرف نية الفاعل.

4–**المرسل إليه**: وهو الطرف المستفيد في الحركة السردية، وليس بالضرورة أن يكون الفاعل نفسه. لكن قد يكون الشخص المنفعل مثلما هو الحال في هذه القصة–موسى عليه السلام– الذي أخذ العلم عن الخضر رغم عدم تمكّنه التحمّل أو الصبر على الأفعال التي قام بها "الفاعل" «قَالَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرا (٦٧) وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَىٰ مَا لَم تُحِط بِهِۦ خُبرا (٦٨)».

إنّ العلاقة بين المرسل والمرسل إليه –وهما طرفا العملية التواصلية– يسودها الاحترام والتواضع وحرص موسى عليه السلام على طلب العلم بأدب ووقار «وَلَآ أَعصِي لَكَ أَمرا (٦٩)»، «قَالَ لَا تُؤَاخِذنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقنِي مِن أَمرِي عُسرا« »قَالَ إِن سَأَلتُكَ عَن شَيءِ بَعدَهَا فَلَا تُصَٰحِبنِي قَد بَلَغتَ مِن لَّدُنِّي عُذرا».

5–**المعارض**: من أجل خلق بؤرة صراع وتعقيد الحدث أكثر كما يجب أن تثبت المعارضة قوتها حتى تمنع الفاعل أو المنفعل من الوصول إلى مبتغاه بسهولة. فموسى عليه السلام لم يفقه ما قام به الخضر، وكان يعترض عليه كلّ مرة بالقول والعتاب، لأنّها أفعال –في نظره – منافية للخلق الإنساني (خرق السفينة، قتل الطفل...)، وجسّدت هذه المعارضة الجمل الاستفهامية الإنكارية على لسان موسى –عليه السلام– «قَالَ أَخَرَقتَهَا لِتُغرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئتَ شَيا إِمرا»، «قَالَ أَقَتَلتَ نَفسا زَكِيَّةَ بِغَيرِ نَفس لَّقَد جِئتَ شَيا نُّكرا » ..ولم يعرف الحقيقة إلاّ في النهاية: «قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَينِي وَبَينِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لَم تَستَطِع عَّلَيهِ صَبرًا (٧٨)».

6–**المساعد**: وإلى جانب الذات الفاعلة والمنفعلة في الخطاب السردي هناك شخصيات معيقة، وأخرى مساندة لها، تشكّلان علاقة حدّدها غريماس في مقولة الصراع. وتعتبر الذات المساندة أقلّ

أهميّة، لأنّها تساعد البطل في رحلته، وقضاء حاجاته، والوصول إلى أهدافه.، وتظهر في هذه القصة الدينية الشخصية المساندة في صورة "الفتى يوشع بن نون " الذي رافق موسى –عليه السلام– في رحلة البحث عن الخضر –عليه السلام– وكان خادما مطيعا، وسندا له في رحلته، يوفر له مستلزمات الحياة «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَاۤءَنَا لَقَد لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبا ». وهذا رسم توضيحي للعناصر السابقة وفق نموذج الاشتغال العاملي لـ غريماس:

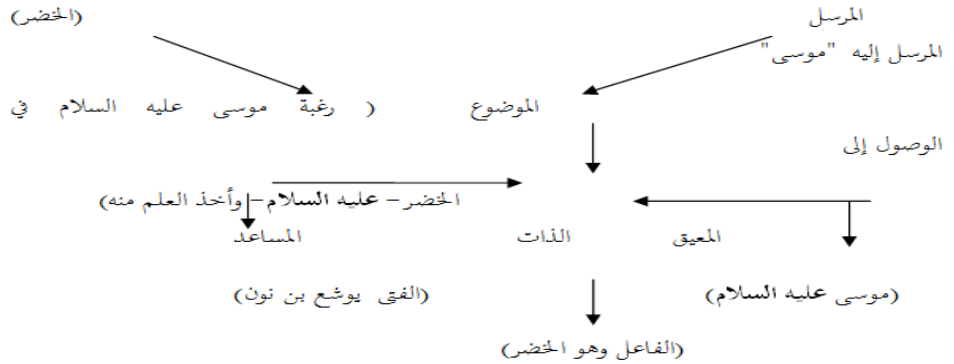

4–**سيمياء السرد:** يعرّف حميد لحميداني السرد بقوله: "هو الطريقة التي تُروى بها القصّة عن طريقة قناة الراوي والمروي له. وفي رأيه أنّ القصة لا تُحدّد بمضمونها فحسب ولكن بالشكل والطريقة التي يقدم بها ذلك المضمون"[19]. ومعنى هذا أنّ السرد هو الطريقة التي يختارها المبدع أو الروائي ليقدم بها الحدث أو أحداث المتن الحكائي. وقد أدّى السرد دوره الفاعل في نسج الصورة الفنية في الخطاب الديني حيث تطوّرت الأحداث وفق تسلسل تصاعدي انتهت باطلاع موسى على الحقيقة «قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا».

4–1– المشاهد السردية في قصة موسى مع الخضر:

تحتوي قصة موسى مع الخضر –عليهما السلام– على ثلاثة مشاهد سردية رئيسة هي:

أ–**وضعية الابتداء:** وهي سفر موسى عليه السلام رفقة فتاه للبحث عن مكان وجود الخضر حتى إذا وصلا مجمع البحرين، طلب موسى من يوشع الرجوع إلى الصخرة لنسيان الحوت .

ب-**وضعية التحويل**: وفيها التقى موسى بالخضر،« قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصا »، وتحققت رغبته في أخذ العلم منه «فَوَجَدَا عَبدا مِّن عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحمَة مِّن عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلما (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَل أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشدا». إنّ العلم الذي سيأخذه موسى عليه السلام عن الخضر من الصعوبة الصبر عليه «قَالَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرا»، والحكمة من هذا أنّ سلاح الطالب في كسب العلم هو الصبر والمداومة في طلبه والسفر في البحث عنه حتى وإن اقتضى ذلك قطع مسافة طويلة.

إنّ العلم الذي أخذه موسى **عليه السلام** ليس كأيّ علم لأنّه كان أفعالا وتجارب عملية مثيرة في ظاهرها منافية للأخلاق الإنسانية لا يستطيع أن يصبر عليها أيّا كان وهي:

الأولى: خرق السفينة في البحر : وهي أول تجربة يتعرض لها موسى **عليه السلام**، فخرق السفينة من طرف العبد الصالح وهي تحمل أفرادا، سلوك يتنافى مع المنطق العقلي، لأنّه يؤدي إلى غرق السفينة وهلاك أصحابها، لهذا استنكر موسى عليه السلام هذا الفعل، ورآه شيئا عجبا «قَالَ أَخَرَقتَهَا لِتُغرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئتَ شَيأً إِمرا».

الثانية: قتل الطفل: ليس هناك أبشع جريمة من قتل النفس، وهو الفعل الذي قام به الخضر بعد مواصلة المسير مع موسى **عليه السلام**، حيث أقدم الخضر على قتل طفل لم يرتكب أيّ جرم فاهتزت نفسية موسى عليه السلام استنكارا لهذا العمل «قَالَ أَقَتَلتَ نَفسا زَكِيَّةَۢ بِغَيرِ نَفس لَّقَد جِئتَ شَيأ نُّكرا ».

الثالثة: عمل شاق دون أجر: وفي هذه التجربة حلّ الرجلان بقرية أهلها بخلاء، حيث طلبا منهم الطعام فأبوا أن يضيّفوهما ثمّ وجد الخضر جدارا على وشك الانهيار فقام ببنائه بجهد ومشقة دون أن يطلب أجر عمله، وهنا شعر موسى -عليه السلام- بالتناقض في الموقف: الطلب من أهل القرية الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما، وبناء الجدار دون مقابل، وهذا ما أثار حفيظة موسى -عليه السلام- فقال: « قَالَ لَو شِئتَ لَتَّخَذتَ عَلَيهِ أَجرا».

ج-وضعية الختام: وانتهت القصة بالفراق واطلاع موسى- عليه السلام- على حقيقة الأفعال المثيرة التي قام بها الخضر **عليه السلام**. « قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَينِي وَبَينِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لَم تَستَطِع عَّلَيهِ صَبرًا » .

-**الحقيقة الأولى: خرق السفينة**: وهي الحادثة الأولى التي أذهلت موسى عليه السلام، ففي تفسير الكشّاف جاء أنّ السفينة "كانت لعشرة إخوة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر"[20]، حيث انطلق الخضر مع موسى –عليهما السلام- " يمشيان على ساحل البحر، مرّت سفينة فكلمهم أن يحملوه، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرا" [21]. وفي رواية أخرى استدل بها ابن كثير بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم أنّ عصفورا نزل على حرف السفينة، فنقر البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر"[22]. وكانت حكمة هذا الخرق لينقذ المساكين من الملك الذي يسلب ظلما كلّ سفينة صالحة، لكن إذا وجد فيها عطبا لم يأخذها.

-**الحقيقة الثانية: قتل الغلام**: وهي الحادثة الثانية التي اندهش منها موسى-عليه السلام- وكانت أشدّ من الأولى، "فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر الغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله" [23]. وحكمة هذه الحادثة أنّ الخضر -عليه السلام- من علم الغيب الذي أطلعه الله عزّ وجلّ إياه أنّ الغلام سينشأ على الكفر والظلم ويرهق والديه المؤمنين، لهذا قتله، ليبدله الله خيرا منه، " وروي أنّه وُلدت لهما جارية تزوجها نبيّ، فولدت نبيّا هدى الله على يديه أمة من الأمم..."[24].

-**الحقيقة الثالثة: عمل شاق بدون أجر**: وهي الحادثة الثالثة، حيث وجد الخضر -**عليه السلام** – جدارا على وشك الانهيار في قرية بخيلة، رفض أهلها ضيافتهما، ومع ذلك قام الخضر –**عليه السلام**- ببنائه بجهد ومشقة مجانا . وهنا كانت نهاية الرحلة والتعليم لموسى عليه السلام الذي لم يصبر ولم يكفّ عن السؤال. وحكمة هذه الحادثة أنّها من علم الغيب الذي أطلعه الله عزّ وجلّ للخضر وهو أنّ تحت هذا الجدار كنز أخفاه رجل صالح للولدين اليتيمين حتى يبلغا أشدّهما فيستخرجانه فقد "قيل : اسما الغلامين أصرم وصريم، واختلف في الكنز، فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة، وقيل لوح من ذهب..." [25].

4-2-الخطاطة السردية: وضع قريماس Grimasse خطاطة سردية من خلال اللحظات السردية التالية: التحريك، الأهلية، الإنجاز، والجزاء [26]. وفي هذا الفلك تتحرك الشخصيتان في الخطاب الديني – موسى والخضر عليهما السلام- لأداء وظائفهما. يمكن تجسيدها في الخطاطتين الآتيتين:

الشخصيات	التحريك	الكفاءة أو الأهلية	الإنجاز أو الفعل	الجزاء
الشخصية الفاعلة الخضر –عليه السلام–	تعليم موسى – عليه السلام	الرحلـــــة	– خرق السفينة. –قتل الطفل. –بناء الجدار	–الفـراق. –اطلاع موسى على الحقيقة.

*الخطاطة (1):

*الخطاطة (2):

الشخصيات	التحريك	الكفاءة أو الأهلية	الإنجاز أو الفعل	الجزاء
الشخصية المنفعلة موسى عليه السلام	البحث عن الخضر حبّ العلم والتعلّم	السفر	–الالتقاء بالخضر **عليه السلام**–.	– الرحلة مع الخضر، وعدم صبر موسى –**عليه السلام**– –الفراق. –معرفة الحقيقة.

ومن هاتين الخطاطتين يتبين دور الشخصيتين في تطور حركة المشهد السردي في الخطاب الديني، حيث تعاقبت الأحداث حتى وصلت منتهاها بمعرفة موسى –عليه السلام –للحقيقة.

–خاتمة:

وخلاصة القول، لقد كانت قصة موسى مع الخضر من أروع القصص القرآني، فإلى جانب ما تمتاز به من سمو غاياتها التربوية والأخلاقية والتعليمية، كانت في مستوى عال من حسن العرض والإيجاز في القول، وبديع التصوير من خلال حسن توظيف الرموز والعلامات التي تحتوي على طاقة دلالية تثير القارئ، فاتحة آفاقا من القراءة والتأويل لإدراك مقاصدها النبيلة.

هذا، وقد توصلتُ من تطبيق المقاربة السيميائية على الخطاب الديني إلى ما يلي:

– إنّ الرمز من الوسائل المثيرة غير المباشرة التي وظفها الخطاب الديني للإقناع والإمتاع، وتحقيق الغرض الديني. وكان الرمز من أقدم الوسائل التي استعان بها القدامى للتعبير عن تجاربهم، والتأثير في قارئهم. وفي هذه القصة الدينية يعدّ كلّ من موسى والخضر –عليهما السلام– رمزين: الأول رمز المتعلّم، والثاني المعلّم، ما هما إلاّ طريقان للعبور إلى الدلالة، وهي التواضع في طلب العلم النافع والمداومة عليه بالصبر، وبذل النفس والنفيس في البحث عن منافذه حتى وإن كان في أقصى مشارق الأرض ومغاربها.

–إنّ تطبيق المقاربات الجديدة بما فيها السيميائية يمكن استغلالها حتى في دراسة المقدّس، فقد اهتدى غريماس إلى تقديم نموذج أو نظرية في تحليل النصوص السردية بجميع أنواعها، وتعدّ في واقع الأمر نظرية في المعنى، وطرق إنتاجه، وأنماط وجوده وانتشاره. وقد رأينا ذلك في القصة الدينية التي تتوفر فيه مواصفات السرد، الأمر الذي أتاح استثمار (السيميائيات السردية لـ غريماس) للتعرف على البنى السطحية والعميقة المكوّنة للخطاب الديني من خلال تحديد ما يلي:

*__سيمياء الشخصيات__: وقد حرّك المشهد السردي شخصيتين في هذا الخطاب الديني (موسى والخضر–عليهما السلام–)، يجسّدان الصراع الذي انتهى بالفراق والاطلاع على الحقيقة.

*__سيمياء السرد__: أدّى السرد دوره الفاعل في نسج الصورة الفنية في الخطاب الديني، حيث تطوّر المشهد السردي وفق منحنى تصاعدي برحلة موسى مع الخضر، والتجارب العملية المثيرة التي قام بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الطفل، وبناء الجدار.

*__الفضاء الزماني والمكاني__: الزمان والمكان من أهم مكونات الخطاب السردي، وهما متلازمان، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر،. وكان مركز الأحداث في (مجمع البحرين)، ثم امتدت إلى فضاءات فرعية "السفينة"، "القرية"...

–أمّا الزمن فأهمّ ما يمكن ملاحظته في الخطاب الديني هو التتابع والتسلسل في حركة الأفعال من الماضي إلى المستقبل، كما يلفتُ نظرنا ظاهرة فنية تدلّ على إعجاز الخطاب القرآني وبديع تصويره، وهي الحذف، وهو أعلى درجات تسريع النص السردي، حيث تجاوز السارد عرض أحداث وتفاصيل رحلة موسى مع فتاه التي دامت سنة، وما للحذف من أثر فني وجمالي في عملية سدّ الفراغ من طرف القارئ. إنّ من محاسن التنزيل وبلاغته الخارقة الإيجاز في القصص والإشارة إلى روحها وسرّها، دون الإرهاق بالتفاصيل المتعلق بتأطير الأحداث زمانيا ومكانيا وأسماء وأنساب أبطالها ومواصفاتهم إلى غير

ذلك من التفاصيل التي لا يعتني النص القرآني باستقصائها؛ إذ هي خارجة عن مرامي أهدافه والعبرة إنما تستخلص فيما وراء ذلك من ضلال المتحدث عنهم أو إيمانهم وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان.

-وكان من ثمرات هذه الدراسة أن قدّمتُ إضافة لجهود الدارسين الذين تناولوا المقدّس بمنظور حديث ومنهج جديد (المنهج السيميائي)، فقد كانت هذه القصة القرآنية تستجيب طواعية لخصائص هذا المنهج بداية بـ: ثرائه بالرموز والعلامات، وبناء الشخصيات، وما بينها من تضاد وتناقض، والحيز، وسرد الأحداث وتسلسلها، ومن ثمَّ فإنّ إخضاع الخطاب القرآني إلى المقاربات النقدية الحديثة أمر ممكن، ولا يتنافى مع مقاصده وغاياته، بل يُسهم في كثير من الأحيان إلى الظفر بالمعنى والدلالة، وإثبات إعجاز القرآن الكريم.

هوامش:

[1] -سورة الكهف، الآيات(60-82).

[2]- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 2002م ط1، ص31.

[3]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، لبنان، دار ابن حزم، ط1، 2000م، ص1162.

[4]- المرجع نفسه، ص1162/1163.

[5]-باديس فوغالي، التجربة القصصية النسائية في الجزائر، دار هومه، الجزائر العاصمة، 2002م، ط1، ص 98.

[6]- حنان محمد موسى حمودة، الزمكانية وبيئة الشعر المعاصر، أحمد عبد المعطي نموذجا، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2006م، ط1، ص22.

[7]- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010 م، ص99.

[8]-شوقي بدر يوسف، الرواية والروائيون ..دراسات في الرواية المصرية. books.google.dz

[9]-الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، لبنان 2009م، ط1 ص624.

[10]- المصدر نفسه، ص626.

[11]-رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، (د، م)، 2002م ط2، ص64.

[12]-عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص126.

[13]–عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م، ص75.

[14]–محمد عزام، شعرية الخطاب السردي –دراسة– منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2005م، ص14.

[15]–حبيب مونسي، المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر 2009م، ط1، ص18.

[16]– الزمخشري، الكشاف، ص625.

[17]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص1162.

[18]–سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، منشورات الزمن، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 2001م، ص79.

[19]–حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ط3، 2003م ص45.

[20]– الزمخشري، الكشاف، ص627.

[21]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص1163.

[22]– المصدر نفسه، ص1163.

[23]– المصدر السّابق، ص1163.

[24]–الزمخشري، الكشاف، ص628 .

[25]–المصدر نفسه، ص628

[26]– سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، ص89.